

حوار مع "ميشيل فوكو

أجراه معه "د. ترامبادوري

(باريس - أواخر 1978)

صدر ب (صحيفة الكونتريبوتو الإيطالية - السنة الرابعة - العدد 1 -

جانفي/مارس 1980)

ترجمة فتحي بن الحاج يحيى

س - أثناء أحداث ماي 68 بباريس وبعدها مباشرة، شارك العديد من المثقفين الفرنسيين في النضالات الطلابية وكانت تجربة طرحت في صياغات جديدة قضية الالتزام والعلاقة بالسياسة ومدى إمكانات وحدود العمل الثقافي. اسمكم لم يكن موجودا بين هؤلاء، فإلى حدود 1970، على الأقل، كنتم غائبين عن الحوار الذي شمل وجوها أخرى من الوسط الفكري الفرنسي. كيف عشتُم ماي 1968 وماذا مثل هذا الحدث بالنسبة لكم؟

ج- في شهر ماي 1968، كما هو الشأن بالنسبة لفترة حرب الجزائر، لم أكن متواجدا بفرنسا، لم أكن أتحرّك على نفس وتيرة الأحداث أي كنت على الهامش نوعا ما. وكلّما عدت إلى فرنسا، وجدت نفسي أحمل نظرة غريبة بعض الشيء، فكلّ ما أقوله لا يقع قبله دوما بسهولة. أذكر أن "ماركوز" سأل يوما، بنوع من العتاب، عمّا كان يفعل "فوكو" أثناء أحداث ماي. فليعلم إنني كنت وقتها بتونس. وأضيف أنني عشت تجربة هامّة.

لقد صادفني الحظّ في حياتي: ففي السويد شاهدت بلدا اشتراكيا-ديموقراطيا تسير شؤونه بشكل حسن، بينما في بولونيا، كان سير الديمقراطية الشعبية سيئا. وعرفت بشكل مباشر ألمانيا الفيدرالية في أيام ازدهارها الاقتصادي في بداية الستينات. وأخيرا، عشت في بلد من العالم الثالث، في تونس، لمدة سنتين ونصف. كانت تجربة مذهلة: فقبل شهر ماي بقليل وأحداثه بباريس، شهدت تونس انتفاضات طلابية بالغة الموقع.

كنا في مارس 1968 حيث عرفت الساحة الطلابية إضرابات وانقطاعا عن الدروس وحملات إيقاف وإضرابا طلابيا عاما. فالبوليس اقتحم الجامعة واعتدى بالعنف على عدد كبير من الطلبة، وتسبّب في إصابة العديد منهم بجروح خطيرة، ورمى بالكثير منهم في السجن. بعضهم حوكم بثمانية وبعشرة وحتى بأربعة عشر عاما سجنا. ولازال بعضهم يقبع إلى اليوم في السجن. واعتبارا لموقعي كأستاذ، ونظرا لأنني فرنسي الجنسية، فقد كنت أتمتع بنوع من الحماية إزاء السلط المحلية وهو ما سمح لي بالقيام بسهولة بسلسلة من الأعمال، وفي نفس الوقت، التبيّن بدقّة من ردود فعل

الحكومة الفرنسية تجاه هذه الأحداث. كما تكوّنت لديّ فكرة مباشرة عمّا يجري في جامعات العالم.

س- هل تعنون بذلك أنّكم قمتم [بتجربة سياسية] مباشرة؟

ج- نعم. فمئذ انخرطي بالحزب الشيوعي الفرنسي مرورا بجميع الأحداث التي تلت ذلك طيلة السنوات التي حدتكم عنها، لم أحتفظ من التجربة السياسية سوى بشيء من "اللاأدرية" التأملية. وأنا لا أخفي ذلك. فأتثناء حرب الجزائر لم أستطع أيضا أن أشارك مباشرة في الأحداث وحتى وإن خوّل لي ذلك، فما كان ليحدث على حساب أمني الشخصي. أمّا في تونس فقد وجدت نفسي أقدم مساعدة للطلبة ولمست في ذلك شيئا مخالفا تماما لما كنّا نشهده في أوروبا من لغو في المؤسسات وفي الخطب السياسية.

أعني، مثلا، ما كانت عليه الماركسية وما كانت وظيفتها لدينا عندما كنّا طلبة في السنوات 1950-1952.

كما تحضرني ما كانت تمثله الماركسية في بلد مثل بولونيا حيث أصبحت موضع قرف تامّ لدى غالبية الشباب (بقطع النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية) وكيف كانت تدرّس كتعاليم دينية ((catéchisme أتذكّر أيضا برودة تلك النقاشات الأكاديمية الخالية من الحماس التي كنت أشارك فيها حول الماركسية في الستينات. بينما في تونس، وخلافا لذلك، فإنّ الجميع يتبنّون الماركسية بشكل راديكالي متحمّس وقويّ وباندفاع مذهل.

فالماركسية، بالنسبة لهؤلاء الشبان، لم تكن الطريقة الأفضل فحسب لتحليل الواقع بل كانت، في نفس الوقت، نوعا من الطّاقة أو الدّفع المعنويين وفعلا وجوديا مثيرا. شعرت وقتها بالمرارة والخيبة تتتابني كلّما قارنت بين كيفية تبني الطلبة التونسيون لماركسيّتهم وكيف يعيشونها وبين ما كنت أعلمه عن كيفية اشتغال الماركسية في أوروبا (فرنسا، بولونيا أو الاتّحاد السوفياتي).

هذا ما مثلته تونس بالنسبة لي: حملتني على الدّخول في الجدل السياسي. لم نكن في ماي 68 الفرنسي بل كنّا في مارس 68 في بلد من العالم الثالث.

س- أنتم تولون أهمية للتجربة السياسية كفعل وجودي. لماذا؟ ربما يبدو لكم ذلك الضمان الوحيد للأصالة والمصداقية؟ ألا تعتقدون أنّ هناك رابط لدى الطلبة التونسيين بين اختياراتهم الإيديولوجية وبين العزيمة التي طبعت تحركاتهم؟

ج- ما هو الشيء الذي يمكنه، في عالمنا اليوم، أن يولّد لدى الفرد التوق والقدرة والإمكانية على التضحية المطلقة دون أن ينمّ ذلك عن أدنى طموح مشبوه أو رغبة في السلطة أو منفعة شخصية؟ هذا الشيء شاهدته في تونس، إنّها الحاجة الحقيقية إلى أسطورة أو ميثية تأسيسية والبحث عن بعد روحاني وردّة فعل أمام عدد من الوضعيات التي أنتجت الرأسمالية والاستعمار بشكليه القديم والجديد.

ففي مثل هذه النضالات، تصبح قضية الالتزام المباشر والوجودي والجسدي، ضرورة حتمية. أمّا فيما يخصّ اعتماد الماركسية كمرجعية نظرية لهذه النضالات، فأعتقد أنّها ليست بالأمر الأساسي. وأوضح ذلك: لم يكن التكوين الماركسي للطلبة التونسيين عميقاً ولم يكن متّجهاً نحو ذلك. فالنقاشات بينهم حول الخيارات التكتيكية والإستراتيجية وما يجب اختياره، كان يمرّ عبر تأويلات مختلفة للماركسية. إنّ الأمر يتعلّق بشيء آخر مغاير تماماً. فلئن بقي دور الإيديولوجية السياسية والإدراك السياسي للعالم أمراً ضرورياً لانطلاق النضال، تظلّ مسألة دقّة النظرية وطابعها العلمي من قبيل المسائل الثانوية للغاية وتقتصر وظيفتها على اعتمادها كـ"تمويه" (leurre) أكثر منها كمبدأ توجيهي سليم وصحيح.

س: ألم تجدوا في فرنسا أيضاً نفس هذه المؤثرات للمشاركة الحيّة والمباشرة التي عشتموها كتجربة شخصية في تونس؟ ماهي العلاقة التي أقمتوها بين هاتين التجربتين؟ كيف قرّرتم، بعد ماي، الاتّصال بالنضالات الطلابية وتطوير الحوار والمقارنة التي أدّت بكم إلى اتّخاذ مواقف، في مناسبات عديدة، والانخراط، إلى جانب عدد من المفكرين مثل سارتر، وجون ماري دوميناخ، وموريس كلافال، في حركات من نوع "مجموعة الإعلام عن المساجين" وعن ظروف السّجون؟

ج- عندما رجعت إلى فرنسا في نوفمبر-ديسمبر 1968، فوجئت نوعاً ما وانتابني نوع من الحيرة وحثّى الخيبة مقارنة بما شاهدته في تونس. فالنضالات، مهما بلغت من عنف وجموح، لم تبلغ درجة التّعرض لدفع نفس الثّمّن الباهض ولا نفس التّضحيات. فلا مقارنة بين متاريس الحيّ اللاتيني وبين المخاطرة الحقيقية المتمثّلة في السجن لمدة خمس عشرة سنة، كما هو الشّأن في تونس. لقد وقع الحديث في فرنسا عن "تضخّم الماركسية" وعن السّيل الجارف للنّظريات، وتبادل التّهم، واللّعنات، وظاهرة التشرذم التنظيمي. أمّا في تونس فكان الوضع على النقيض تماماً، وهو ما استهواني في هذا البلد. ولعلّ ذلك يفسّر الطريقة التي حاولت التطرّق بها إلى الأشياء مذ وقتها، وكذلك التّفاوت أو عدم التناغم مع تلك النّقاشات المبهمة وتلك "المركسة المتضخّمة" والإسهال الخطابي الذي كان يميّز حياة الجامعات وبالخصوص جامعة "فانسان" سنة 1969. حاولت القيام بأشياء تؤدّي إلى الالتزام الشخصي الجسدي والحقيقي الذي من شأنه أن يطرح القضايا في صياغات ملموسة ومضبوطة ومحدّدة في سياق وضعية معيّنة.

وأعتقد أنّه لا يمكن، دون هذا المنطلق، تقديم تحاليل ذات جدوى. فلقد حاولت، بالعمل على قضية المساجين ضمن "مجموعة الإعلام عن المساجين"، القيام بتجربة في العمق. كان الأمر، بالنسبة لي، فرصة لإعادة النّظر فيما كان يشغلني من خلال أعمال مثل "تاريخ الجنون Histoire de la folie" أو "ولادة العيادة"

Naissance de la Clinique في علاقة بما خوّلته لي الأحداث في تونس من اختبار لهذه الأفكار.

س- عندما تثيرون ماي 68، أراكم تتحدثون عنه بطريقة توحى بالتقليل من بُعد هذا الحدث، فأنتم تميلون إلى الاقتصار على الجانب المهزلي الذي طغت عليه الإيديولوجية، والحال أنه كان من الأجدر مجرد الإشارة إلى حدود هذه الحركة وخاصة فيما يتعلّق بظهور التنظيمات الصغيرة المشنّنة إذ أعتقد أنه لا يجوز التقليل من أهمية ظاهرة هذه الحركة الجماهيرية التي عمّت جميع أوروبا تقريبا.

ج- ماي 68 يكتسي، دون أدنى شكّ، أهمية استثنائية وخرافة للعادة. فالأكيد أنني، من دون ماي 68، ما كنت لأنجز الأعمال التي أنجزتها عن السجن والجنوح والجنسانية. في مناخ ما قبل 68 لم يكن ذلك ممكنا. فأنا لم أدع أبدا بأنّ ماي 68 لم يشكّل بالنسبة لي أية أهميّة بل كلّ ما ذكرته هو أنّ بعض المظاهر الأكثر بيانا للعيان، والأكثر سطحية، والتي تجلّت في أواخر 68 وبداية 69 كانت غريبة عني ولا تعينني بالمرّة.

أمّا الأشياء التي شكّلت المدار الحقيقي للحدث والتي غيرت فعلا الأشياء فقد كانت من نفس الطبيعة سواء كان ذلك في فرنسا أو في تونس.

فما حدث هو أن فرنسا شهدت نوعا من ارتداد ماي 68 على نفسه أو من الرجوع العكسي على الذات حيث آل الأمر إلى طغيان ظاهرة تشكّل التنظيمات الصغرى، وتشكّلت الماركسية إلى أجسام صغيرة من النظريات تتقاذف الشتائم واللّعنات. ولكن من حيث العمق، فالأشياء قد تغيّرت بشكل أصبح فيه أشعر بأريحية أكثر مما كنت عليه في السنوات السابقة عندما كنت بفرنسا في 1962 أو في 1966. فالأشياء التي كانت محور اهتماماتي بدأت تدخل حيز الاهتمام العام. تلك القضايا التي كانت لا تجد لها، في السابق، صدى، عدا في الطبّ النفسي المضادّ الإنجليزي-anti (psychiatrie)، والتي أصبحت الآن موضوع الساعة. ولغاية المضىّ شوطا أبعد في تعميق الخطاب، وجدت نفسي مضطراّ لاختراق تلك القشرة المتكلسة والمفتّنة في نفس الوقت للتنظيمات الصغرى والمجادلات النظريّة التي لا تنتهي. وقد بدا لي بأنّه أصبح ممكنا إرساء نوعية جديدة من العلاقات والعمل المشترك، مختلفة عن السّابق، بين المثقفين وغير المثقفين.

س- ولكن على أيّ أساس، ومن خلال أيّ خطاب، وانطلاقا من أيّة مضامين، تمّ إيجاد مثل هذه العلاقة والحال أن مختلف الخطابات لا تتكلم نفس اللّغة ولا تتواصل فيما بينها ؟

ج- صحيح أنّني لم أكن أستعمل قاموس الألفاظ الأكثر تداول ولا وقتها. فقد اتّبع مسالك أخرى. ذلك لا يمنع من وجود نقاط التقاء مشتركة، بمعنى من المعاني: كنا نتوصّل إلى النّفاهم حول الشّواغل الملموسة والقضايا الحقيقية. وها إنّنا اليوم نجد عددا كبيرا

من الأشخاص يتحمسون كلما تحدثنا عن ملاجئ المعتوهين، وعن الجنون، والسجون، والمدينة، والطب السريري، والحياة والموت والتي تمثل جميعها ظواهر ملموسة للوجود وتثير الكثير من التساؤلات النظرية.

س- الدرس الافتتاحي الذي ألقيناه في الكوليج دي فرانس Collège de France) ونشر بعنوان "نظام الخطاب" يعود إلى 1970. ففي هذا العرض الجامعي ومن خلال تحليلكم لآليات الإقصاء التي تتحكم في الخطاب، بدأتم تؤسسون لفكرة العلاقة بين المعرفة والسلطة. قضية هيمنة السلطة على الحقيقة وبالتالي مسألة إرادة الحقيقة، تمثل مرحلة جديدة هامة في فكركم. كيف توصلتم إلى بسط هذه المسألة بالشكل الذي طرحتموه أو بالأحرى كيف توصلتم إلى حصر هذه الإشكالية؟ وبأيّ كنيّة ترون أن إشكالية السلطة كما طورتموها جاءت لتلتقي بالمدّ الحركي للشباب في 1968؟

ج- ما الذي حدث لي طيلة حياتي إلى اليوم؟ ماذا يعني ذلك القلق العميق الذي شعرت به تجاه المجتمع السويدي؟ والقلق الذي انتابني في بولونيا؟ رغم أن الكثير من البولونيين يعترفون أن ظروف العيش المادية هي اليوم أفضل مما كانت عليه في بعض الفترات السابقة. كما أتساءل عما يعنيه ذلك المدّ الانتفاضي المتجدد الذي قام به الطلبة في تونس.

ما الذي كان موضع تساؤل في جميع هذه الظواهر؟ إنّه حتما الطريقة التي تُمارس بها السلطة، ليس فقط سلطة الدولة وإنما أيضا السلطة الممارسة من مؤسسات أخرى أو مختلف أشكال الضّغط التي تفضي إلى نوع من الاضطهاد المتواصل في مجال الحياة اليومية. فهذا الشيء الذي كنا نتحمّله بصعوبة والذي كان باستمرار موضوع رفض قد ولد فينا هذا النوع من القلق، وهو أمر لم نتحدث عنه منذ اثني عشرة سنة، ألا وهو السلطة. ولا نعني بذلك سلطة الدولة فقط وإنما أيضا تلك السلطة التي تمارس داخل الجسم الاجتماعي من خلال قنوات وأشكال ومؤسسات شديدة الاختلاف. لم نعد نقبل أن نُحكم بالمفهوم الواسع للحكم. ولا أعني بذلك حكم الدولة كما يعرفه القانون العام بل أقصد أولئك الذين يوجهون حياتنا اليومية بواسطة الأوامر، والتأثيرات المباشرة وغير المباشرة كوسائل الإعلام، مثلا. فعندما كنت بصدد كتابة "تاريخ الجنون" وأثناء اشتغالي على مؤلّف "ولادة العيادة"، كنت أفكر في التاريخ السلالي أو جنيالوجيا للمعرفة *généalogie du savoir*، ولكنّ الخيط الرّابط يكمن، في الحقيقة، في مسألة السلطة.

وفي حقيقة الأمر، فأنا لم أفعل سوى رصد الكيفية التي تعتمد عليها عدد من المؤسسات في ممارسة سلطتها، باسم المعايير المعهودة، على مجموعات من الأفراد قياسا بعدد من التصرفات والتصنيفات التي تمسّ الذات البشرية من حيث طريقة وجودها، وأفعالها، وأقوالها، والتي صُنّفت على أنّها غير عادية أو هي من قبل الجنون أو

المرض ألخ... فالواقع أنني لم أفعل سوى تناول تاريخ السلطة. أفهل هناك اليوم من لا يتفق على أنّ الأمر، في ماي 68 لم يكن هناك سوى انتفاضة ضدّ سلسلة من أشكال السلطة كانت تمارس بضغط شديد على بعض الفئات العمرية في عدد من الأوساط الاجتماعية؟ فمن خلال مجموع هذه التجارب، بما في ذلك تجربتي الشخصية، كانت تبرز كلمة واحدة، شأنها شأن تلك الكلمات المكتوبة بالحبر السري، والمهيأة للتجلي على الورق كلما سكبنا عليها المادة الكاشفة الملائمة، هذه الكلمة هي: السلطة.